محاكمة الغرب

حوار مع عميدة الاستشراق الألمانى: **البروفيسورة أنا مارى شيمل**

«عن أوهام الغرب عن الإسلام»

أجراه فى سويسرا : **ثابت عيد**

oneikandil.com

obeikandl.com

تقديم

يعود الفضل الأكبر فى إخراج هذا الحوار إلى الصديق العزيز الأستاذ ماركو ماير العميد الجديد لكلية الصحافة والإعلام فى مدينة لوزرن بسويسرا. فعندما فكر العميد السابق لهذه الكلية الأستاذ بيتر شولتس فى دعوة الأستاذة أنا مارى شيمل لإلقاء محاضرة فى لوزرن فى أواخر شهر نوفمبر سنة ١٩٩٥م ـ كان يبحث عن متخصص فى العلوم الإسلامية ليدير حواراً معها بعد المحاضرة أمام الجمهور، فسأل ماركو ماير أن يرشح له أحداً من معارفه، فذكر له اسمى، بعد أن سألنى. ثم إننى ترددت قليلاً فى قبول هذا التحدى؛ نظراً لضيق الوقت. ولكنى فوجئت بالأستاذ شولتس يرسل لى بطاقة دعوة، مطبوع عليها اسم شيمل واسمى، فلم أجد بعد ذلك مجالاً للاعتذار. تفرغت حوالى أسبوعين لأدرس بهدوء ما كتبته الصحافة الألمانية والسويسرية عن شيمل بعد الإعلان عن حصولها على جائزة اتحاد الناشرين الألمان. وكانت حقاً تجربة مريرة، لمست من خلالها عداء الغرب الشديد للإسلام، وجهل معظم النقاد الذين علقوا على حصول شيمل على جائزة السلام من اتحاد الناشرين الألمان لعام ١٩٩٥م، وهاجموا أقوالها الخاصة بسلمان رشدى، قررت أن يكون حوارى مع شيمل عن أوهام الغرب عن الإسلام، أو ما يطلقون عليه بالألمانية Voruteile ـ فالجميع يتحدث عن هذه الأوهام، دون

تحديد دقيق، أو تعريف واف. كان عليَّ بالطبع أن أعود إلى كتاب نورمان دانيال عن الإسلام والغرب(١)، وكتاب سيجريد هونكه Allah ist ganz anders الذى ترجم مؤخراً إلى العربية(٢) وكتاب مونتجومرى وات وألفورد ويلش Der Islam I (٣) وكتاب شيمل Der Islam III (٤).

تمكنت بعد الاطلاع على جزء كبير من هذه المراجع من استخلاص عشرة أوهام محددة، قررت أن أحاور فيها شيمل أمام الجمهور، وهى:

١ ـ إن الإسلام يضطهد المرأة.
٢ ـ إن الإسلام عقيدة منحرفة وتحريف متعمد للحقائق.
٣ ـ إن الإسلام هو دين النار والحديد.
٤ ـ إن الإسلام هو دين الشهوات.
٥ ـ إن نبى الإسلام قد ضلله الشيطان، وإنه كان المسيح الدجال.
٦ ـ إن الإسلام لا يعرف شيئاً اسمه «حقوق الإنسان»، وإن الإنسان فى الإسلام عليه واجبات فقط، وليس له حقوق.
٧ ـ إن المسلمين يعادون الغرب.

---

(١) راجع: Norman Daniel, Islam and the West, One world, Oxford 1993

(٢) انظر: Sigrid Hunke, Allah ist ganz anders, Horizonte Verlag, Bad König 1990 وراجع الترجمة العربية بقلم الدكتور غريب محمد غريب، بعنوان: «الله ليس كذلك»، دار الشروق ومؤسسة بافاريا ومجلة النور الكويتية، القاهرة ١٩٩٥م.

(٣) انظر: W. Montgomery Watt und Alford T. Welch, Der Islam, I, Verlag W. Kohlhammer, Stuttgart, Berlin, Koeln, Mainz, 1980

(٤) انظر: Annemarie Schimmel u. a., Der Islam III, Verlag W. Kohlhammer, Stuttgart, Berlin, Koeln, Mainz, 1990.

obeikandi.com

٨ ـ إن الجهاد هو الحرب المقدسة.

٩ ـ إنه لا يوجد إلا اتجاه فكرى واحد فى الإسلام.

١٠ ـ إن الإسلام يعادى العلم.

فى برن قابلت عزيزتى شيمل فى أواخر شهر نوفمبر ١٩٩٥م، وأمضينا معاً ساعات طويلة نتحاور فى موضوعات شتى، قبل أن نأخذ القطار معاً، ونتجه إلى لوزرن. عرضت على شيمل قائمة الأوهام. ألقت عليها نظرة سريعة، ثم قالت: «هذا موضوع ممتاز». فى الموعد المحدد اعتلينا المنصة، وبدأت المحاكمة. فى البداية رجوت الأستاذة شيمل التعقيب على ما سأتلوه عليها من أوهام. فكنت أقرأ لها الوهم، فتنطلق هى ـ كقاضية القضاة ورئيسة المحكمة ـ بلغة ألمانية فصحى، وأسلوب رفيع، تفند هذه الأوهام، وتشرح لجمهور السويسريين الحاضرين التصورات الوهمية للغرب عن الإسلام. وبعد الانتهاء من الوهم العاشر، شكرت شيمل وبدأت بالتصفيق، فتبعنى جمهور الحاضرين (أكثر من ثلاثمائة شخص). وأصدرت المحكمة حكماً باستنكار سلوك الغرب تجاه الإسلام وتوجيه إنذار شديد اللهجة إلى أعداء الإسلام. الأسلوب الذى تمت به المحاكمة لم يعجب بعض الحاضرين، ومنهم صحفيون سويسريون ـ هاجمونى فى الصحف السويسرية بعد ذلك ـ لأنهم كانوا ينتظرون منى ـ فيما يبدو ـ أن أهاجم شيمل وأنتقد موقفها من سلمان رشدى. ولكن كيف لى أن أهاجم عالمة أنا فى غاية الإعجاب بها، وكيف لى أن أعادى سيدة أثبتت أنها أشجع من مئات الرجال، وكيف أنتقد

obeikandl.com

إنسانة لا تقول إلا الحق، وأخيراً كيف أطعن فى شيمل، وهى إنسانة تحترم نفسها، ولا تسعى إلى خداع الآخرين، بأن تقول هنا شيئاً، ثم تقول عكسه فى مكان آخر، مثلما يفعل المستشرق الألمانى الحرباء فان إس الذى يلون جلده بلون المكان الذى ينزله: يمدح الإسلام فى القاهرة، ثم يعود إلى ألمانيا، فيتهكم على الله، قائلاً: «إن الله يتكلم العربية»؟ هيهات لى أن أفعل!!

❁ ❁ ❁

Obeikandl.com

نص الحوار

١ ـ الأستاذة شيمل: يدّعى كثير من الغربيين أن الإسلام يضطهد المرأة ـ ما حكمك على هذا الادعاء؟

هذه بالطبع فكرة خاطئة تحوم فى العالم الغربى منذ عقود، بل منذ قرون طويلة، والأكثر من ذلك أن هناك من الغربيين من يعتقد بأن المرأة فى الإسلام هى كائن بلا روح، ولا نفس! ولدحض هذه المزاعم الكاذبة ليس علينا إلا الرجوع إلى القرآن الكريم، لنرى كيف ساوى الإسلام بين المؤمنين والمؤمنات، بين المسلمين والمسلمات، ولم يفرق بين الذكر والأنثى فى مجال الفرائض الدينية، وقد يكون مصدر هذا الادعاء هو وجود بعض التقصيرات الظاهرية فى حقوق المرأة فى القرآن، مثل ميراث البنت الذى لا يزيد عن نصف ميراث الابن، بيد أن ذلك له سبب عملى، حيث يفترض بطبيعة الحال حصولها على مهر مناسب عند زواجها، وأن زوجها هو الذى يعولها.

وهناك أيضاً مشكلة تعدد الزوجات، المشار إليها فى القرآن: ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ** ﴾ [النساء: ٣]. وليس هذا فرضاً أو أمراً، ولكنه إذن، أو سماح، قد أعطى للمسلمين فى وقت الحرب، حينما ترملت مسلمات كثيرات، بفقدانهن أزواجهن فى المعارك والغزوات، وفضلاً عن ذلك فالرجل فى الجاهلية كان يحق له أن يتزوج بعدد غير محدود من النساء، حتى جاء الإسلام وحدد عدد الزوجات بأربع. كذلك فقد اشترط الإسلام على الرجل

Obeikandi.com

أن يعدل بين زوجاته، ولا يميز أو يفضل إحداهن على الأخرى، وهو ما جعل زعماء الإصلاح فى الإسلام يشيرون إلى أن نظام الزوجة الواحدة أفضل من تعدد الزوجات، فَمَنْ من الرجال بوسعه أن يعدل فى أحاسيسه بين أربع زوجات؟ وهذا شىء منطقى، فالرجل يمكنه أن يشترى لكل زوجة بيتاً أو ثوباً جديداً فى وقت واحد، ولكنه لن يستطيع أن يعدل فى مشاعره وأحاسيسه تجاههن. ومن هنا استنتج المصلحون فى الإسلام أن القرآن يشير ضمنياً إلى أن نظام الزوجة الواحدة هو الأفضل، ولابد أن أذكر فى هذا المقام أن القرآن يحتوى على الكثير من هذه الآيات التى نزلت فى سياق تاريخى معين، وهنا ينبغى مراعاة «أسباب التنزيل»، حتى يمكن فهم هذه الآيات فهماً صحيحاً.

أما الحجاب، فقد قال القرآن عنه: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور ـ ٣١].

والمشكلة هنا أنه لا يوجد اتفاق أو إجماع على تحديد المقصود بلفظ «زينة» ـ بيد أن الحجاب، أو غطاء الرأس كان الهدف الأصلى

obeikandl.com

منه حماية وتمييز نساء الرسول ﷺ، وحرائر المسلمين عن الإماء والجوارى؛ لأن الجوارى والإماء وغيرهن من نساء الطبقات المتواضعة كن لا يرتدين إلا أخف الثياب، ومع مرور الوقت، وبتأثير الحضارة الفارسية بالذات، تم فرض الحجاب أو التغطية الشاملة على المرأة.

ولكن عزل المرأة فى الإسلام لم يحدث إلا كنتيجة لتطورات سياسية واجتماعية، وقد نجد بعض الآيات التى تشير إلى ذلك، ولكن القرآن لم يأمر مطلقاً بعزل المرأة، أو إبعادها عن جميع أنشطة المجتمع. وبهذه الطريقة تطورت أفكار كثيرة، لا وجود لها فى القرآن أصلاً، ليس فقط فيما يخص حقوق المرأة وأوضاعها، ولكن أيضاً فى مجالات أخرى، وذلك عن طريق التفسير الشعبى الساذج للقرآن، وجمود العادات والتقاليد، وتأثير الحضارات الأجنبية.

ففى الهند مثلاً، وتحت تأثير الديانة الهندوسية، لم يكن مسموحاً لأرامل المسلمين بالزواج مرة أخرى، ولكن مسلمى الهند بدأوا يحاربون مثل هذه التأثيرات الأجنبية. كل هذه الأمور ينبغى رؤيتها من منظور تاريخى.

إننى أقول دائماً للغربيين الذين يشوهون صورة الإسلام: إن الإسلام قد منح المرأة حق الاحتفاظ بما كانت تملكه قبل زواجها، وكذلك بما تكسبه أثناء زواجها. وهذا يتضمن أن لها الحق فى ممارسة أى مهنة أو تجارة، والمرأة فى أوروبا لم تتوصل إلى حق الاحتفاظ بما تملكه بعد زواجها، إلا منذ وقت قريب.

وما يثير إعجابى بصورة خاصة كمؤرخة أديان، هو [الآية ١٨٧ من سورة البقرة]: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ، وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾. واللباس هنا يعنى «الذات الأخرى»، أو «النفس الأخرى». وبذلك يكون معنى هذه الآية أن الرجل والمرأة يكمل بعضهما بعضاً، وأن كلاً منهما هو النصف الأفضل للآخر. أعتقد أنه ينبغى تسليط المزيد من الضوء على هذه الآية عند الحديث عن مكانة المرأة فى الإسلام؛ لأن هذه الآية تساوى بالفعل بين الرجل والمرأة.

٢ ـ من أوهام الغرب عن الإسلام الادعاء بأن العقيدة الإسلامية هى عقيدة منحرفة، وتحريف متعمد للحقائق، ماذا تقولين عن هذا التشويه؟

هذا اتهام خاطئ وجَّهه مسيحيو القرون الوسطى إلى الإسلام. فمسيحيو العصور الوسطى اعتبروا الإسلام هرطقة مسيحية. بل إن بعض أساطير القرون الوسطى تحكى أن محمداً ﷺ كان كاردينالاً استاء لعدم تعيينه بابا، فقام بالانفصال عن الكنيسة، وأسس ديانة جديدة، هذه الروايات موجودة فى كتابات القرون الوسطى، ولا غرو أن تتسم ردود فعل مسيحيى القرون الوسطى على هذه الهرطقة المزعومة بالذعر والفزع، لأنهم كانوا يعتقدون أنه لا يمكن أن تأتى ديانة أخرى جديدة بعد المسيحية، وهذا الرأى ما زال شائعاً فى الكثير من الأوساط المسيحية حتى يومنا هذا. وحتى أدولف فون هارناك Adolf von Harnack (عالم أديان بروتستانتى توفى سنة ١٩٣٠م) ـ الذى يكاد أن يكون معاصراً لنا ـ لم يعترف بالإسلام، واعتبره نوعاً من الهرطقة المسيحية، وسعى إلى الطعن فيه فى شتى المناسبات.

فهذه الأفكار من ميراث القرون الوسطى، ومن المؤسف أن مثل هذه التصورات الخاطئة تبقى لوقت طويل فى ذاكرة الأفراد، بل فى «اللاوعى الجماعى»، أو «اللاشعور الجماعى» للأمة، حيث يتم إحياؤها فى الوقت المناسب.

٣ ـ ما حكمك على القول بأن الإسلام هو دين النار والحديد؟

هذا ادعاء نعرفه جيداً، وهو أيضاً شائع جداً فى الغرب، حيث يقولون إن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف، ولكن الغربيين يتجاهلون هنا حقيقة ثابتة، هى أن جميع الأديان قد استخدمت النار والحديد فى حروبها الدينية، بما فى ذلك المسيحية، بيد أننا نستطيع أن نقول من حيث المبدأ: إن الفتوحات الإسلامية التى تمت بحد السيف كانت أسبابها ودوافعها سياسية بحتة، ولم تحدث لتوسيع رقعة الإسلام كديانة.

ولنأخذ على سبيل المثال القائد الإسلامى الكبير تيمور (توفى سنة١٤٠٥م) فى القرن الرابع عشر الميلادى. فما دمره هذا القائد من دولة إخوانه المسلمين من الفرس والعرب والأتراك، لم يفعله فى سبيل الإسلام، ولكن من أجل تدعيم سلطته ومركزه.

ومثل هذه الأحداث ـ وخاصة فتوحات تيمور، التى كان لها أثر بعيد فى أوروبا ـ ساهمت فى تثبيت وتأصيل فكرة «النار والحديد». بيد أنه فى حالة العصور المبكرة لشبه القارة الهندية، أو ماليزيا، أو غرب أفريقيا، لم ينتشر الإسلام بحد السيف، بل عن طريق الصوفيين الذين بسَّطوا لتلك الشعوب العقيدة الإسلامية، فجذبوهم إليها، كما أشار إلى ذلك سير توماس أرنولد قبل قرن من الزمان.

ولنأخذ الهند كمثال لذلك: فمتصوفو الهند قد أسسوا «مضايفهم»

أو ما يسمى «خوانق» أو «خانكاهات» أو «خانقاوات»[1]. التى كان بها مطابخ مفتوحة لعامة الناس، مثلما نعرفه من الكثير من الأديرة المسيحية، فإطعام المساكين والفقراء هو جزء لا يتجزأ من العقيدة، ونحن نعلم أن الديانة الهندوسية تفرق بشدة بين طبقات الشعب، بحيث لم يكن مسموحاً لأحد بتناول الطعام مع أفراد طبقة أخرى، أما هذه المضايف ـ أو الخوانق ـ الصوفية، فكانت أبوابها مفتوحة أمام الفقراء، حيث كانوا يتناولون طعامهم هناك مع الآخرين، دون تفرقة أو تمييز، ويرى أحد زملائى الباحثين أنه عن طريق هذه المطابخ المفتوحة دخل كثير من الهندوس فى الإسلام، وكانت هذه وسيلة عملية أكثر منها دينية لنشر الإسلام. وبهذه الطريقة حصل الفقراء على بعض ما يقتاتون به، واندمجوا فى مجتمع يعتنى بشئونهم، ويرفق بحالهم، ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى أدت فيها هذه الممارسات العملية دوراً حاسماً فى عملية انجذاب الأفراد إلى الإسلام، ودخولهم فيه.

بيد أن فكرة «النار والحديد» قد ازدادت تأصلاً من خلال الحروب السياسية، مثل الفتوحات العربية السريعة فى شمال أفريقيا فى

---

(١) خوانق وخوانك وخانكاهات وخانقاوات: هى صيغ جمع للفظ «خانقاه». وهى كلمة مركبة من أصل فارسى، معناها: بناء جرت الحال بأن يوقف على المتصوفة المسلمين مريدى طريقة من طرق الدراويش.

- انظر: دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية أئمة المستشرقين فى العالم، النسخة العربية، إعداد وتحرير: إبراهيم زكى خورشيد، والدكتور عبد الحميد يونس، وحسن عثمان، المجلد السادس عشر، مطابع دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩م، ص ٤٥٩ وما بعدها..

القرن السابع الميلادى من ناحية، ومن ناحية أخرى ـ وأعتقد أن هذا حدث مهم بالنسبة لوسط أوروبا ـ من خلال فتوحات العثمانيين فى البلقان، ثم حصار فيينا سنة ١٥٢٩م. وكثيراً ما يراودنى شعور بأن هذا الحدث يمثل فى الواقع مسألة حساسة جداً فى علاقة أوروبا بالإسلام. وهذا ينطبق فى المقام الأول على ألمانيا والنمسا.

وإذا رجعنا إلى الكتابات الغربية فى أوروبا الألمانية فى الفترة ما بين سنة ١٥٢٩م وسنة ١٦٨٣م، سنرى كيف أن حصار فيينا هذا قد صدم الأوروبيين بشدة، ومنذ ذلك الوقت سعى الغربيون إلى إلصاق كل ما هو سلبى وقبيح بالأتراك والمسلمين. وأحياناً يراودنى إحساس ـ وقد يكون هذا هو إحساسى الشخصى ـ بأن هذا الخوف الغريب من فتح الأتراك لفيينا ما زال مسيطراً على الألمان بطريقة خفية دفينة؛ حيث يظهر ذلك بوضوح من خلال سلوكهم تجاه العمال الأتراك فى ألمانيا، وقد يجهل الألمان هذه الحقيقة، ولكن حصار فيينا هذا كان يمثل صدمة شديدة للأوروبيين، ما زالوا يسترجعون ذكرياتها حتى يومنا هذا، فى ظروف مختلفة تماماً عن ذلك الوقت.

والواقع أن هذا شىء مؤسف حقاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأتراك على مر القرون ـ على الأقل بداية من القرن التاسع عشر ـ كانوا من أقرب أصدقاء ألمانيا الحميمين، وكان لفظ (ألمانى) يمثل بالنسبة لهم أعز وأجمل كلمة فى الوجود. ويحزننى جداً أن أرى بعد ذلك السلوك السلبى للألمان تجاه الأتراك فى الكثير من الحالات، وكثيراً ما تحدثت مع عمال أتراك بسطاء، كانوا فى غاية التأثر والإحباط من المعاملة غير المثالية التى يلاقونها من الشعب الذى كان بالنسبة لهم هو «الشعب المثالى».

٤ ـ ما هو تقييمك لادعاء بعض الغربيين بأن الإسلام هو دين الشهوات؟

يعود هذا القول إلى الترجمات الأوروبية فى القرون الوسطى لبعض الآيات القرآنية التى تصف الجنة كحديقة كبيرة للشهوات الحسية، مملوءة بالحور العين، وشتى أصناف المتع الجسمانية. وقد صدمت هذه الترجمات- فى المقام الأول- الأوساط المسيحية المتنسكة فى العصور الوسطى إلى حد بعيد، كذلك فإن هذه الأوساط قد صدمها أن رسول الإسلام ﷺ لم يكن عَزَبًا مثل المسيح ـ عليه السلام ـ ولكنه مارس حياة زوجية طبيعية. وكان المتدينون من مسيحيى القرون الوسطى يعتبرون مثل هذه الأمور غير لائقة بالإنسان الكامل المؤمن المحب لله، ناهيك بالطبع عن نبى مرسل.

وقد ساهم هذان العاملان فى نشر صورة الإسلام «الشهوانى» فى القرون الوسطى، وحتى عصرنا هذا. وبعد نشر أول ترجمة فرنسية لـ «ألف ليلة وليلة» بقلم جالان Galland فى القرن الثامن عشر، ساهم الجو الخيالى لهذه القصص فى نشر صورة الإسلام «الشهوانى» أيضاً فى الكتابات والفنون الغربية، ويظهر هذا بجلاء فى الفنون التشكيلية الخاصة بالقرن التاسع عشر من خلال كيفية تصوير المرأة الشرقية والحريم وخلافه.

وهناك مراجع أوروبية كثيرة عن صورة الشرق فى هذه الفنون الغربية، والتى أبرزت بصورة خاصة المناظر الجنسية ـ الشهوانية التى لم يرها الرسامون فى معظم الأحوال على الإطلاق، ولكنهم أطلقوا العنان لخيالهم فى تصورها، وكثير من المناظر التى لم يكن مسموحاً

لهم برسمها فى لوحات تعبر عن البيئة الأوروبية، رسموها فى لوحات صوروا بها الشرق الإسلامى، فصارت بذلك محللة غير محرمة، ولا شك أن هذا قد ساهم بدور فعال فى تثبيت ونشر صورة الإسلام «الشهوانى» فى الغرب، ولعلِّى هنا أتفق مع إدوارد سعيد وآخرين بأن هذه الرسومات قد شوهت صورة الإسلام فى الغرب.

ولما كان حديثنا عن الجنة والحور العين، فلابد أن أروى لك حكاية أحبها بصورة خاصة: «أتت عجوز إلى النبى ﷺ فقال لها ﷺ: لا يدخل الجنة عجوز، فبكت، فقال: إنك لست بعجوز يومئذ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾ [الواقعة: ٣٥، ٣٦].

٥ ـ من أوهام الغرب عن الإسلام الادعاء بأن نبى الإسلام قد ضلله الشيطان، وأنه كان المسيح الدجال، ما حكمك على هذا الوهم؟

هذا أيضاً من تراث القرون الوسطى، وإذا قرأت الـ Chanson de Geste ـ قصيدة الأعمال البطولية الفرنسية (من قصائد الشعر الحماسى الفرنسى المبكر ـ من القرن الحادى عشر حتى القرن الرابع عشر الميلادى)، ستجد فيها مثل هذه الأفكار. بل إن هناك رواية أخرى تقول إن محمداً ﷺ قد شارك شخصين آخرين فى تكوين نوع من الثالوث الشيطانى، وفى الأدب الإنجليزى والإسكتلندى نلاحظ ظاهرتين مفجعتين: فاسم محمد- Muhammad قد تم

تشويهه بقدرة قادر إلى Mahaund ـ وهذا اللفظ يتكون من مقطعين، أولهما Ma وهو جزء من الاسم الأصلى Muhammad والثانى هو haund أو Hound ويعنى «كلب» أى أن نبى الإسلام قد تحول إلى كلب ـ وصار محمد «الكلب محمد» والظاهرة الثانية هى أن هذا الاسم المحرف لمحمد ﷺ قد أصبح مرادفاً للفظ «شيطان».

وحتى فى الأشعار الألمانية الرومانسية ـ أعتقد حتى عصر نوفاليس (أديب وشاعر ألمانى رومانسى، توفى سنة ١٨٠١م) ـ نلاحظ تشويهاً آخر لاسم محمد، حيث تم تحويل الاسم من Muhammad إلى Mahom (ماحوم). ثم إن هذه الأشعار تتحدث عن الصور الذهبية لماحوم Mahom (محمد)، والمقصود هنا هو اتهام المسلمين بأنهم يعبدون أصناماً ذهبية لمحمد ﷺ، إلى آخر هذه المطاعن.

أعتقد أنه لا يوجد شىء سلبى لم يلصقه الغربيون بالإسلام. وتعتبر الـ Chanson de Geste الفرنسية خير ما يعكس صورة الإسلام فى أوروبا فى القرون الوسطى.

كذلك فهناك عدد كبير من الدراسات الألمانية الجادة عن هذا الموضوع، التى تعرض كل هذه التصورات من القرن الثامن حتى القرن العاشر، والتى تفاقمت بطبيعة الحال مع بداية الحروب الصليبية.

وفى نوفمبر ١٩٩٥م حلت ذكرى مرور تسعمائة سنة على انطلاق أول حملة صليبية. وهذا يرينا كيف أن تصورات وأفكاراً عديدة يعود أصلها إلى تلك الحقبة المبكرة، ما زالت حية فى عقول الغربيين ومخيلتهم.

٦ ـ يدعى بعض الغربيين أنه لا يوجد فى الإسلام شىء اسمه «حقوق الإنسان»، وأن الإنسان فى الإسلام عليه واجبات فقط، وليس له حقوق، ما قولك فى هذا الادعاء السخيف؟

هذا هراء لم أفهمه أبداً، فحقوق الإنسان موجودة فى الإسلام، مثل وجودها فى الأديان والمجتمعات الأخرى، مع اختلاف واحد هو أن ولاء المسلم يكون فى المقام الأول للبارئ تعالى، لأنه تعالى هو الخالق المبدع، وفى الآية السبعين من سورة الإسراء، يقول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ** ﴾ [الإسراء: ٧٠]، أى أن الإنسان له مكانة خاصة فى هذا الكون. وفى الآية الثانية والسبعين من سورة الأحزاب: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ولكنه حمل هذه الأمانة التى رفضتها جميع المخلوقات الأخرى بما فيها الجبال، وقد تميز الإنسان عن بقية مخلوقات الله بقبول هذه الأمانة، التى قد تكون العقل، أو الحب، أو الطاعة، وهذا يضعه فوق جميع المخلوقات.

والحقوق التى يتمتع بها الإنسان لا يمكن أن تكون مطلقة بلا حدود، بل هى محددة دائماً بعلاقته بالله تعالى. والإسلام يقول إن من آمن بالله تعالى فلابد أيضاً أن يراعى ويحترم ويصون حقوق الآخرين، والقرآن يشرح لنا بدقة مسئولية الإنسان وواجباته تجاه الآخرين وتجاه المجتمع.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الإنسان فى الإسلام يتمتع يقيناً بحقوق محددة واضحة، ولكنها مصوغة بطريقة مختلفة، أو فى سياق مختلف عن سياق أو أسلوب صياغتها فى الغرب بعد عصر التنوير، حيث إن الغرب قد فقد صلته بالله إلى حد بعيد، واستبعدها من قوانينه.

٧ - يتهم بعض الغربيين المسلمين بمعاداة الغرب، فما حقيقة هذا الاتهام؟

هذا صحيح جزئياً فقط؛ لأن المسلمين عانوا طويلاً من نير الاستعمار الغربى فى القرنين الماضيين. فالمسلمون على سبيل المثال أصابهم الفزع الشديد عندما جاء إليهم المبشرون الإنجليز، وسعوا سعياً حثيثاً لتشكيكهم فى إسلامهم، حيث أبلغوهم أنهم بشر من الدرجة الثانية، ولدينا مؤلفات كثيرة لكتاب إنجليز وهنود تعالج هذا الموضوع، وتنقل محاورات المبشرين المسيحيين مع مسلمى الهند، والتى كانت فى الغالب مفزعة.

وأحاسيس الاستياء والاشمئزاز والكراهية تجاه الاستعمار، وتجاه التبشير المسيحى، يمكن أن نلمسها بقوة لدى مسلمى الهند بالذات، ولكن هذا ينطبق أيضاً على بقية الشعوب الإسلامية.

ثمة نوع من الخوف اليوم من التكنولوجيا الحديثة والتصنيع وأسلوب الحياة الأمريكى. والاستياء والكراهية هنا موجهان ضد الجوانب السلبية، أو ما يعتبره المسلمون جوانب سلبية فى الحضارة الغربية، مثل المبالغة فى التحديث، والمبالغة فى التغريب، ومثل

الإباحة الجنسية، وما شابهها. وردود فعل المسلمين تجاه هذه الجوانب السلبية تتسم بالوضوح والحساسية.

والخطر الأكبر الذى يكمن هنا ـ وهذا ما ينبغى ذكره دائماً ـ هو بالطبع أن المسلمين برفضهم مثل هذه المظاهر الخارجية للحضارة الغربية ـ وهى بالمناسبة مظاهر سلبية يرفضها كثير من الغربيين أنفسهم ـ ينسون أن بوسعهم أن يتعلموا الكثير من الغرب، مثل الدقة العلمية، والتكنولوجيا الحديثة، ومناهج البحث العلمى.

لقد قال محمد إقبال ـ ومصلحون مسلمون آخرون ـ إنه من الممكن بل من المحبذ، أن يظل المرء مسلماً، وإنه يمكنه أن يبقى مسلماً، وفى الوقت نفسه أن يقتنى العلوم والتكنولوجيا الغربية. وهذا فى رأيى موقف إيجابى جداً. ولكن قصر النظر الذى يؤدى إلى رؤية الجوانب السلبية فقط، يقود ـ لا محالة ـ إلى أحكام خاطئة، وتصورات مشوهة عن الغرب، تماماً مثل تطورات الغرب المشوهة عن الإسلام. والمشكلة هنا فى رأيى هى مشكلة جهل، أو مشكلة أخذ الجوانب السلبية، التى تظهر على السطح، واعتبارها كلاً، أو ممثلة لكل الحضارة، دون التطرق إلى الجوانب الإيجابية الأخرى، واستبعاد إمكانية التفاهم.

٨ ـ ما حكمك على ترجمة الغربيين للفظ «جهاد» بـ «الحرب المقدسة»؟

لفظ «الحرب المقدسة» هو لفظ مسيحى مرتبط بالحروب الصليبية فى المقام الأول، ولا علاقة له بالإسلام من قريب أو بعيد، وترجمة

obeikandl.com

لفظ «جهاد» بلفظ «الحرب المقدسة» هى ترجمة ركيكة تزعجنى وتضايقنى منذ عقود طويلة. ولكن ما يحزننى أكثر هو أن بعض المسلمين قد صاروا هم أيضاً يتحدثون عن «الحرب المقدسة» وأشياء مشابهة.

والواقع أن المعنى الأصلى للفظ «الحرب المقدسة» لا علاقة له بالحرب- ناهيك بالطبع أن تكون حرباً مقدسة- والفعل (جاهد) معناه: تعب واجتهد وبذل كل طاقته، ولفظ (جهاد) يعنى: الكد والتعب فى سبيل تحقيق هدف معين، والجهاد فى سبيل الله هو: الاجتهاد والعمل والكفاح فى سبيل الله، وقد يتضمن هذا محاربة الكفرة، وكان أحد زملائى فى جامعة هارفارد- وهو أستاذ مسلم- يواجه هذا السؤال بصورة شبه مستديمة من الطلبة: ما هو الجهاد؟ هل هو الحرب المقدسة؟ وكان يرد قائلاً: «الجهاد لا علاقة له بالحرب المقدسة. إنه يعنى ببساطة: الكد والعمل والكفاح فى سبيل تحقيق هدف معين، فعلى سبيل المثال عندما تبقى فى سريرك فى الصباح الباكر، وتشعر بأنك كسلان، لا تريد الاستيقاظ، ولكنك ترغم نفسك على القيام من السرير، فهذا أيضاً نوع من الجهاد.

٩ ـ يتحدث بعض الغربيين عن الإسلام بطريقة تعميمية غريبة، توحى بأنه لا يوجد إلا فكر واحد أو اتجاه واحد فى الإسلام، أو «إسلام واحد»، فما حكمك على هذا الوهم؟

القول بأنه لا يوجد إلا إسلام واحد هو قول خاطئ من أساسه، فالإسلام مثله مثل المسيحية، يشتمل على تيارات متباينة، واتجاهات

متعددة، ومن يدعى أنه لا يوجد إلا إسلام واحد، يشبه من يتجاهل الاختلافات الشديدة بين الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، والكنائس الأمريكية الحرة، ويدعى أنه لا فرق بينهما ! يقيناً أساس الإسلام واحد، هذه حقيقة لا جدال فيها، فالمسلمون جميعاً يؤمنون بأنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، بيد أن كل الأمور الأخرى تتنوع بتنوع الثقافات الإسلامية.

ولنأخذ الجماعات الصوفية التى تخاطب شتى طبقات المجتمع كمثال على هذه الاختلافات، فالطريقة الصوفية التى تتكون فى شمال أفريقيا أو نيجيريا تختلف كل الاختلاف عن مثيلتها فى الهند أو إندونيسيا، نظراً لتباين الأجناس، واختلاف الخلفيات التاريخية، وتشعب الثقافات.

باختصار: الأساس واحد، لا خلاف فيه، ولكن الفروع تتنوع بتنوع الشعوب والأجناس والثقافات، فالمسلمون فى الصين وأفريقيا تجمعهم أصول عقائدية مشتركة، ولكن فى مجال الفكر والفلسفة هناك خلافات كبيرة بينهم، تماماً مثل الخلافات الفلسفية والعقائدية الموجودة فى الديانة المسيحية.

وحتى الأشعار الدينية فى شتى دول العالم الإسلامى ـ ولنأخذ مثلاً قصائد مدح الرسول ﷺ ـ فهى وإن كانت متشابهة فى مضمونها وجوهرها، إلا أنها تختلف فى تفاصيلها، وفى طابعها المحلى. إن كثرة المذاهب والتيارات فى الإسلام يشبه شجرة، لها جذر واحد ضخم، ولكن فروعها كثيرة متشابكة، وكل هذه الفروع ـ مهما كثرت ـ تنتمى إلى الشجرة نفسها. ولكن لكل فرع حياته

الخاصة، ونستطيع أن ندرس هذه الفروع، ولكن لا يمكننا فصلها عن الشجرة الأم. والفرع الذى ينمو فى الشمس يختلف عن ذاك الذى ينمو فى الظل، وكلاهما يحمل أوراقاً تتباين فى أحجامها وأشكالها.

فثمة تنوع هائل فى الإسلام، وهذا بالذات هو ما يعطى الإسلام جاذبية شديدة، أى: تنوع الواحد، أو تنوع الوحدة الذى نلاحظه أيضاً بجلاء فى الفن الإسلامى. وإذا أخذنا فن الخط العربى - وهو محور الفنون الإسلامية - كمثال هنا، سنجد الشكل الكلاسيكى الذى تطور على مر العصور. ولكن إذا قارنا قرآناً مكتوباً فى نيجيريا بآخر مكتوب فى الصين مثلاً، فنحن وإن كنا سنتمكن من تمييز الحروف وقراءتها فى كلٍّ منهما، إلا أننا سنلاحظ اختلاف الخط الذى يعكس ظروف البيئة والمجتمع. والشىء نفسه ينطبق على الاتجاهات الدينية والفلسفية والعقائدية فى الإسلام.

وبرغم ذلك فقد حدث مؤخراً نوع من التوحيد فى مناطق كثيرة، وخاصة فى أفريقيا؛ لأن الدعاة المصريين هناك اجتهدوا فى نشر عقيدة موحدة، كل هذه الأمور ينبغى فهمها جيداً. ولكن بصفة عامة أعتقد أن تنوع الوحدة هذا - الخاص بمجال العقائد- يمنح الإسلام جاذبية شديدة. وأود هاهنا أن أستشهد ببيت من الشعر السندى، من القرن السادس عشر، يتحدث فيه أول شاعر سندى كبير عن الله تعالى، مشبهاً إياه بشجرة التين الهندى. فتلك الشجرة لها مئات من الجذور الهوائية التى تنمو فوق سطح الأرض وهى - برغم ضخامتها - ليس لها إلا أصل واحد. والشاعر هنا يشبه البارئ

تعالى ومخلوقاته بشجرة التين الهندى هذه، التى تبدو وكأنها غابة كثيفة، برغم كونها شجرة واحدة. وهذا التشبيه الجميل ينطبق أيضاً على الإسلام. فالإسلام هو وحدة واحدة، ولكن هذه الوحدة تتشعب منها مئات من الجذور المتشابكة.

١٠ ـ ما حكمك على اتهام بعض الغربيين الإسلام بمعاداة العلم؟

لدحض هذا الزعم ليس علينا إلا الرجوع إلى الفلسفة الإسلامية فى القرون الوسطى، وكذلك ـ وهذا هو الأهم ـ إلى إسهامات العرب العلمية، فالحقيقة التى لا مراء فيها هى أن العرب قد وضعوا أسس العلوم الطبيعية فى أوروبا من خلال ما نقلوه عن اليونان فى العصور الوسطى من ناحية، ومن خلال تطويرهم لهذه العلوم من ناحية أخرى.

فنحن نعلم أن الأعمال الطبية للرازى وابن سينا كانت تدرس فى جامعات أوروبا حتى عصر النهضة، وخاصة تلك المؤلفات الخاصة بطب العيون، ناهيك بالطبع عن المصنفات الرياضية، والكتابات الخاصة بعلم الفلك وعلم التنجيم.

والرأى القائل بأن الإسلام يعادى العلم المقصود منه فى الغالب العصور المتأخرة، أى: ما بعد سنة ١٢٥٨م، بعد تدمير المغول لبغداد، ولكن العلماء العرب فى عصرنا هذا ـ مثل جورج صليبا فى نيويورك مثلاً ـ قد أثبتوا مقدرتهم على مجاراة العصر فى هذه العلوم، كذلك سجل السيوطى ـ المتوفى سنة ١٥٠٥م ـ ملاحظات علمية مدهشة، ناهيك عن مسلمى الهند ووسط آسيا.

ولنذكر المرصد الذى أسسه «أولوغ بيك» ـ ابن تيمور ـ فى القرن الخامس عشر الميلادى فىَ سمرقند، أو الإسهامات العلمية لمسلمى الهند فى القرون المتأخرة، أو الأنشطة العلمية للمسلمين فى الدولة العثمانية. قد لا تكون هذه ابتكارات أو اكتشافات علمية ضخمة من ذلك النوع الذى عرفته أوروبا بعد عصر النهضة، ولكنها كانت برغم ذلك- إسهامات تستحق الذكر والتنويه.

بالطبع يدور الجدل حول لفظ «علم» الذى كان يعنى قديماً: علوم القرآن فحسب. ولكن لفظ «علوم» شمل بقية ميادين المعرفة.

وأتذكر أننى زرت سمرقند سنة ١٩٩٤م، وذهبت هناك إلى مدرسة فى ريجيستان، كان «أولوغ بيك» مؤسس المرصد المعروف قد بناها، وكانت الكتب معروضة فى غرفة صغيرة، وكان بينها مخطوطة لمجموعة أحاديث البخارى، كانت هذه المخطوطة مفتوحة على الصفحة الأولى، حيث تصدرها الحديث النبوى الشريف: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**». وكان هذا هو الحديث المحبب لأولوغ بيك، الحاكم المسلم، وكان بحق موقفاً مؤثراً جداً عندما رأيت هذا الحديث يتصدر المخطوطة الشخصية لأولوغ بيك، وأعتقد أن مجرد ذكر هذا الحديث بأن «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**» يكفى لإثبات أن الإسلام لا يعادى العلم.

والعلماء المسلمون المحدثون يساهمون بأنشطتهم فى حقول المعرفة كافة. ولا ينبغى أن ننسى أن هناك عالماً مسلماً قد فاز بجائزة نوبل للفيزياء، وهو البروفيسور عبد السلام، الباكستانى الجنسية.

ولا يصح أن نعتقد أن عصور التخلف والانحطاط فى العالم الإسلامى قد امتدت لقرون طويلة، فالتخلف فى العالم الإسلامى ظاهرة أعقبت الازدهار والتقدم، وإذا بحثنا فى ظاهرة التخلف والانحطاط بطريقة جادة وعميقة، واقتفينا أسباب هذه الظاهرة التى أدت إلى الزعم بأن الإسلام يعادى العلم، فسوف نخرج بالكثير من الاكتشافات.

إن الجمود الذى يعيشه المسلمون اليوم - والذى جعلهم لا يأخذون من الإسلام إلا قشوره - هو ظاهرة غريبة على الإسلام، وهو تطور يتنافى مع الروح الديناميكية للإسلام التى تسعى إلى التطوير والابتكار.

وإذا قرأت كتاب محمد إقبال:

"Six Lectures of the Reconstruction of Religious Thought in Islam"

«ست محاضرات فى إعادة بناء الفكر الدينى فى الإسلام». سترى كيف يمزج إقبال بمهارة فائقة بين الفلسفة الأوروبية والفلسفة الإسلامية وعلم الكلام والعلوم الحديثة فى بناء واحد، يحث المسلمين من خلاله على المشاركة بإسهاماتهم فى جميع فروع العلم. أعتقد أن هذه خطوة كبيرة على الطريق الصحيح.

الأستاذة شيمل: شكراً لك على هذا الحديث.

❁ ❁ ❁